

إحياء علوم الدين

حديث من الأخلاق مكارم في لال ابن بكر أبو أخرجه أخلاقكم حسنوا حديث // أخلاقكم حسنوا A
معاذ يا معاذ حسن خلقك للناس منقطع ورجاله ثقات // وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير
خلق البهيمة ممكن إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس والكلب من شره الأكل إلى التأدب
والإمساك والتخلية والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق والقول
الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله
وتفصيله كالسماء والكواكب بل أعضاء البدن داخلا وخارجا وسائر أجزاء الحيوانات وبالجملة
كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله وإلى ما وجد وجودا ناقصا وجعل فيه قوة
لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فأن النواة ليست بتفاح ولا
نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها ولا تصير تفاحا أصلا
ولا بالتربية فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك
الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا
ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب
نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى نعم الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة
القبول ولاختلافها سببان .

أحدهما قوة الغريزة في أصل الجبلية وامتداد مدة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر
موجودة في الإنسان ولكن أصعبها أمرا وأعصاها على التغيير قوة الشهوة فإنها أقدم وجودا
إذ الصبي في مبدأ الفطرة تخلق له الشهوة ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب وبعد ذلك
يخلق له قوة التمييز .

والسبب الثاني أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسنا
ومرضيا والناس فيه على أربع مراتب .

الأولى وهو الإنسان الغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح بل بقي كما فطر
عليه خاليا عن جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضا باتباع اللذات فهذا سريع القبول
للعلاج جدا فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن
خلقه في أقرب زمان .

والثانية أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله
فتعاطاه انقيادا لشهواته وإعراضا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ولكن علم تقصيره في
عمله فأمره أصعب من الأول إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه إذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أولا من

كثرة الاعتیاد للفساد والآخر أن یغرس فی نفسه صفة الاعتیاد للصلاح ولكنه بالجملة محل قابل للریاضة إن انتهض لها بجد وتشمیر وحزم .

والثالثة أن یعتقد فی الأخلاق القبیحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجمیل وتربی علیها فهذا یکاد تمتنع معالجته ولا یرجى صلاحه إلا على الندور وذلك لتضاعف أسباب الضلال . والرابعة أن یكون مع نشئه على الرأى الفاسد وتربیته على العمل به یرى الفضیلة فی كثرة الشر واستهلاك النفوس ویباهی به ویظن أن ذلك یرفع قدره وهذا هو أصعب المراتب وفی مثله قیل ومن العناء ریاضة الهرم ومن التعذیب تهذیب الذیب .

والأول من هؤلاء جاهل فقط .

والثانی جاهل وضال .

والثالث جاهل وضال وفاسق .

والرابع جاهل وضال وفاسق وشریر .

وأما الخیال الآخر الذی استدلوا به وهو قولهم إن الآدمی ما دام حیا فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنیا وسائر هذه الأخلاق فهذا غلط وقع لطائفة طنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهیهات فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية فی الجبلة فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ولو انقطعت